من خطوات صلاح الدين الاستراتيجية
لتحرير بيت المقدس

إعداد

معتز عبد الرحمن

مقدم إلى

الأستاذ الدكتور: ماهر أبو منشار

تمهيد

الانجازات الكبرى لا تكون وليدة اللحظة، خاصة إذا كانت تستهدف استدراك وإعادة بناء ما تم هدمه على مدار عقود، فإذا كان ما بني في سنوات يمكن هدمه في ساعات، فكيف بإعادة بناء ما تم هدمه على مدار سنوات، ولقد كان سقوط بيت المقدس تحت الاحتلال الصليبي دركة أخيرة سبقتها العديد من دركات الانهيار، وكان على من يعمل على استعادته اتخاذ طريق طويل للصعود من جديد، بدأت ارهاصات هذا الطريق قبيل ظهور عماد الدين زنكي والذي حوّل الأماني والمساعي المتفرقة إلى نقطة بداية عملية لها أسس، ليستلمها منه ابنه نور الدين زنكي ويحقق الكثير مما لم تتح الفرصة لوالده كي يحققه، ليؤول المشروع في النهاية إلى صلاح الدين الأيوبي ليكمل المسير.

إلا أن الأمر لم يكن بتلك السهولة، فلم يرث صلاح الدين الأيوبي مكتسبات نور الدين بسلاسة كما ورث نور الدين مكتسبات والده، فقد احتاج صلاح الدين ابتداء لاتباع استراتيجية طويلة المدى في حياة نور الدين كي يضم مصر إلى حكمه، ثم اضطرته الأقدار لاحقا لرسم واتباع استراتيجيات جديدة لإنقاذ مشروع نور الدين بعد وفاته، وفي السطور القادمة نلقي الضوء على استراتيجيات صلاح الدين من أجل التحرير خلال مرحلتين أساسيتين، الأولى خلال عهد نور الدين زنكي، والثانية ما بعد وفاة نور الدين وقبل الاشتباك النهائي مع الصليبيين.

المرحلة الاول: استراتيجية صلاح الدين الأيوبي خلال عهد نور الدين (السيطرة الكاملة على مصر)

ذهب صلاح الدين الأيوبي إلى مصر قبل أن يحكمها مرتين، وفي المرتين ذهب إليها كضابط مقاتل يعمل تبعا لاستراتيجية نور الدين زنكي وتحت قيادة مباشرة من عمه أسد الدين شيركوه، إلا أن ذاك العمل لم يكن تنفيذا للأوامر دون إدراك لأبعاد وأسباب الحراك الذي يشارك فيه، فقد وعى صلاح الدين جيدا أهمية السيطرة على مصر كخطوة أساسية لتحرير بيت المقدس أيا كان المتصدر لتنفيذ مشروع التحرير، ونبعت أهمية مصر في مشروع التحرير من موقعها وثرواتها معا.

آلت وزارة مصر إلى صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه وهو في الحادية والثلاثين من عمره تقريبا بمساعدة الظهير السني داخل منظومة الحكم الإسماعيلي في مصر وعلى رأسهم القاضل الفاضل رحمه الله، ورغم حداثة سن صلاح الدين بالنسبة إلى عظم المنصب الذي تولاه، فقد أدرك بحنكته السياسية أن تولي منصب الوزير في تلك المرحلة لا يعني أنه قد سيطر فعليا على مصر، وأن العبرة بالواقع العملي لا بالمسميات، وأن هناك تحديات يجب أن يتم حلها بالكامل قبل اعتبار أن خطوة السيطرة على مصر قد تمت بالكامل، ومنها:

1- البطانة الفاطمية للخليفة العاضد والطامعين في منصب الوزير من الفاطميين الإسماعيلية، بجانب عدم ثقة صلاح الدين في العاضد نفسه الذي بدا محايدا في كثير من المنازعات التي واجهها صلاح الدين.

2- عداء القوات الفاطمية – لا سيما السودانية – له والتي كانت تفوق عدد قوات الشام عددا وكذلك في خبرتها بالأرض التي تقيم عليها منذ عقود.

3- عدم ولاء عوام المصريين له إذ كان مجهولا لديهم، كما كان صلاح الدين الوزير الخامس خلال ست سنوات، والشعوب في حالات عدم الاستقرار الشديدة تلك لا تبالي بمآل الحكام ولا تواليهم كما ينبغي.

4- اعتراض عدد من قيادات نور الدين على تولي صلاح الدين الوزارة لاعتقادهم أنهم أحق بها منه ومغادرة بعضهم إلى الشام.

5- اغتراب قوات الشام عن مصر، وعدم شعورهم بالانتماء إليها ورغبتهم في العودة إلى الشام، وهو ما أقلق صلاح الدين بشأن تماسكهم وسط المؤامرات والمعارك الداخلية والخارجية التي يواجهونها.

وقد قام صلاح الدين الأيوبي بالعديد من الاجراءات ليتجاوز تلك التحديات ويحقق السيطرة الكاملة على مصر، من ذلك:

1- مواجهة المؤامرات الداخلية والخارجية عسكريا واستخباراتيا حتى أنه قضى على عصيان قام به الجيش وغزو خارجي ومؤامرة داخلية خلال ستة أشهر فقط من توليه المنصب.

2- لزم صلاح الدين القاهرة ولم يغادرها طوال فترة الاضطرابات حذرا من الخيانات الفاطمية بما في ذلك قلقه من خيانة العاضد نفسه، والذي قام صلاح الدين بوضعه تحت الإقامة الجبرية لاحقا.

3- استقدام شقيقه توران شاه ليقود معه القتال ضد المتمردين، وبجانب كفاءة شقيقه وشدته كان لتلك القرابة أهمية إضافية وسط أزمة الولاء التي كانت تهدد صلاح الدين من الظهر.

4- كما استعان صلاح الدين بنور الدين في الشام والذي أمده بقوات وقيادات قوية، منهم بعض من كان تخلى عن صلاح الدين سابقا فور توليه الوزارة ورحل إلى الشام.

5- وزع صلاح الدين العديد من أملاك المتمردين الذين تم سحقهم على القوات الشامية لينشئ انتماء وارتباطا لهم بالأراضي المصرية.

6- استقدم صلاح الدين والده أيوب وشقيقين آخرين غير توران شاه هما العادل وطغتكين وهما أيضا من القادة المقاتلين، مما زاده اتزانا وسيطرة على مجاري الأمور.

7- بدأ على الفور مشروع الإصلاح المذهبي في مصر ليعيد المذهب السني إلى الواجهة ويحجم المذهب الإسماعيلي وروافده، فقد أدرك صلاح الدين أن النزاع مع الدولة الفاطمية والدور السلبي الذي قامت به في سقوط بيت المقدس من البداية لم ينبع فقط من النزاع السياسي بين العباسيين والسلاجقة من جانب والفاطميين من جانب آخر، بل كان للنزاع المذهبي أثر كبير، كما أنه في النهاية لم يصل إلى الحكم في مصر إلا عبر الظهير السني الذي خالف الدولة التي يعمل تحت لواءها لصالح ولاءه الديني، فأصبح بذلك الإصلاح المذهبي جزء لا يتجزأ من خطوة تحقيق الوحدة و(تأمين الظهر) قبل المواجهة مع الصليبيين بجانب كونه واجبا دينيا حسب معتقد صلاح الدين ومن معه.

والخطوات الاستراتيجية سالفة الذكر هي مما لا يختلف عليه اثنان يعملان لأجل مشروع التحرير، ولذلك تعاون نور الدين مع واليه على مصر في كل ما سبق، إلا أن صلاح الدين قد انفرد عن سلطانه برؤية أو بخطوة استراتيجية أخرى يمكن وصفها بأنها استراتيجية (استخدام الوقت)، فلم تكن صورة السيطرة التي حققها صلاح الدين في الشهور الأولى لحكمه كافية في رأيه لاعتبار أن الأمر قد تم في مصر، وقد خالفه نور الدين في ذلك، وبقيت القضية عالقة بين الرجلين إلى وفاة نور الدين رحمه الله.

احتاج صلاح الدين إلى عنصر الوقت في تحقيق أمور استراتيجية رآها ضرورية في مشروع التحرير، منها:

1- الهدم التدريجي لبنيان الدولة الفاطمية لتجنب أي ردات فعل عنيفة قد تقضي على كل ما تم إنجازه، بما في ذلك هدم الكيانات العسكرية الفاطمية وإحلال القوات الموالية لنور الدين وصلاح الدين مكانها.

2- تحقيق الشعور الحقيقي بالأمان تجاه الدسائس والمؤامرات التي قد تكون لا تزال تدار في الظل، فرغم تولي صلاح الدين الوزارة عام 1169م ووفاة الخليفة العاضد عام 1171 م دون أن يعين خليفة مكانه، إلا أنه وحتى عام 1174م ظل صلاح الدين يواجه تمردات ومؤامرات جديدة أحبطت إحداها في شهر إبريل على يد رجلين من رجال صلاح الدين اندسا وسط المتآمرين وهما (ابن مصال) و(ابن نجا)، وهو نفس العام الذي توفي فيه نور الدين.

3- تكوين بنيان الدولة الجديدة والبديلة في مصر، فتغيير مذهب الدولة يتطلب العديد من الخطوات التي تحتاج إلى وقت، من ذلك تأسيس مدارس تقوم بتخريج قضاة سنة وكوادر إدارية سنية تحل محل الكوادر الإسماعيلية تدريجيا، كما عني صلاح الدين بتشييد البناء الفكري والثقافي الجديد على كل المستويات حتى في الخطوط المستخدمة في الكتابة، بدء من القرآن الكريم ثم سائر الكتابات بما في ذلك النقوش والزخارف، فتحول الخط تدريجيا من الخط الكوفي الفاطمي إلى خط النسخ، وقد استدعى صلاح الدين الخطاطين من الشام ليعلموا خط النسخ للخطاطين المصريين ويعملوا على نشره.

كادت السيطرة الكاملة المرجوة على مصر تكتمل، ليتحقق الهدف الاستراتيجي بتوحيد مصر والشام تحت لواء نور الدين زنكي، إلا أن وفاة نور الدين زنكي مع عدم وجود وريث قوي له قد فككت جناح الوحدة الأول الذي كان مشيدا قويا بعدما تم تشييد وتقوية الجناح الثاني، فعادت عقارب الساعة إلى الوراء.

المرحلة الثانية: استراتيجية صلاح الدين الأيوبي بعد وفاة نور الدين (استعادة الوحدة مع الشام)

لم تكن الوحدة بين مصر والشام أمرا كماليا أو فرعيا في استراتيجية التحرير وإلا لما انتظر نور الدين زنكي كل ذلك الوقت حتى تتحقق السيطرة الكاملة على مصر، وإذا كان من يحكم عموم الشام والتي يقع بيت المقدس في قلبها لا يستطيع تحريره دون ضم مصر إلى حلفه، فمن باب أولى سيعجز من يحكم مصر فقط دون الشام عن استكمال مشروع التحرير.

سببت وفاة نور الدين من أول وهلة شرخا في الوحدة بين مصر والشام، ولم تلبث أن سببت شروخا في داخل وحدة الشام نفسها، إذ وقع النزاع بين دمشق وحلب والموصل، إلى حد (اختطاف) حلب للصالح إسماعيل بن نور الدين من دمشق لتنتزع شرعية قيادة الدولة الزنكية مترامية الأطراف بوجود وريث نور الدين بها، وهو الملك الذي لم يتجاوز عمره الحادية عشرة، وقد لجأ صلاح الدين إلى استراتيجيات وخطوات عدة في مواجهة تفلت الشام من الوحدة المنشودة، ثم العمل على استعادتها بالكامل، منها:

- محاولة الإبقاء على تلك الوحدة ابتداء، إذ أعلن صلاح الدين الولاء لخليفة نور الدين، وجعلت خطبة الجمعة في مصر باسمه، فأبقى المشهد كما كان في أواخر أيام حكم نور الدين زنكي، متجاوزا تجاهل الأمراء الزنكيين له وتطاولهم عليه.

- التمهل قبل التدخل في النزاع الداخلي في الشام، كي لا يدخل في مشهد النزاع على السلطة قدر المستطاع، وحذرا من الأطماع الصليبية وأطماع بقايا الفاطميين في مصر.

- رغم ما مثله النزاع الزنكي الداخلي من إغراء لصلاح الدين كي يتدخل في الشام إلا انه لم يتخذ خطوة فعلية في اتجاه الشام إلا بعدما دعاه ابن المقدم لحكم دمشق والتي كانت مكشوفة وضعيفة بعد سحب الملك الصالح منها إلى حلب، ولتأكيد صورة كونه لم يأت إلى الشام غازيا، فقد صحب معه نحو سبعمائة جندي فقط، وهو عدد قليل لا يناسب هدف (غزو) الشام، وإنما هو أقرب لعودة أحد أبناء الشام إلى وطنه وإخوته لا خصومه، ومن المحللين من رأى في ذلك تهورا من صلاح الدين لا يناسب حذره المعروف بينما رأى آخرون أنه أراد بذلك تأليف قلوب الشاميين عامة والدمشقيين خاصة، وهو وسيلة تصب مباشرة في صالح الهدف الاستراتيجي الأساسي وهو تحقيق الوحدة، وبدا أن ذلك المسلك قد لاقى قبولا في دمشق فلم يواجه صلاح الدين معارضة تذكر رغم وجود الكثير من رجال نور الدين زنكي في المدينة.

- تصبر صلاح الدين في مواجهة العناد والإهانات التي وجهت له من الأمراء الزنكيين عموما ومن أمراء حلب خصوصا وذلك حرصا على ضمها سلما، وتوجه نحو حمص التي انضمت له طواعية تحت قيادة أميرها فخر الدين الزعفراني، وكذلك حماة تحت قيادة عز الدين جرديك وهو أحد من شاركوا صلاح الدين في الحملة على مصر والقضاء على شاور، وأرسله صلاح الدين لجس النبض في حلب إلا أنه قبض عليه وألقي في الجب، وخابت آمال صلاح الدين في انضمام حلب إليه سلما، إذ كانت الاجراءات المضادة له مكثفة للغاية، شملت الاستعداد العسكري، والاستعانة بالفرنجة لضرب حمص وبالتالي فك الحصار، والاستعانة بالحشاشين لاغتيال صلاح الدين، وبمهادنة الشيعة وإعطاءهم حقوق دينية في الأذان وغيره كي يضمنوا ولاءهم ضد صلاح الدين.

- اهتم صلاح الدين في استراتيجيته تجاه الشام بـ (الشرعية)، لذلك أبقى الخليفة العباسي دوما في الصورة، وأبقى خط الاتصال معه مفتوحا، ليضيف لنفسه شرعية الدولة العباسية بجانب شرعية الجهاد ومشروع التحرير، فكان يبلغ الخليفة بالتطورات ويبرر له تحركاته على الأرض وخطورة تحركات خصومه على الشام والعراق ومصر والدولة العباسية عامة، ومع تطورات الأوضاع في الشام اعترف الخليفة العباسي بسلطان صلاح الدين على مصر وعلى ما وقع تحت يده من أراضي الشام وأرسلت إليه الخلعة وفقا لذلك، ورغم أن الخليفة العباسي فعل الأمر نفسه مع الملك الصالح إسماعيل إلا أن عدم انفراد الملك الزنكي بذلك حقق توازنا على الأرض ساعد صلاح الدين في مسعاه.

- قَبِل صلاح الدين كل جنوح إلى الصلح من قبل الزنكيين وعقدت العديد من الهدن والاتفاقات خلال سنوات النزاع، وكان يستهدف بذلك حقن الدماء والحفاظ على القادة والمقاتلين الذين كان يخوض كل ذلك النزاع لأجل الاستعانة بهم في معركته ضد الصليبيين، كما استهدف بذلك تأليف قلوب الشاميين وعوامهم لتحقيق وحدة حقيقية على الأرض يمكن أن يدير ظهره لها وهو مطمئن أثناء قتاله مع الصليبيين، كما عقد أيضا الهدن مع الصليبيين لتجنب الدخول في قتال خاسر قبل تحقيق الهدف الاستراتيجي الأكبر، وكذلك عمد إلى تحييد كتائب الاغتيالات (الحشاشين) بعدما تكررت محاولاتهم واستعانة خصومه بهم وذلك عبر حصارهم الذي انتهى بوساطة لم يتعرضوا بعدها له.

- بعدما أصبح الدخول في قتال مباشر مع الزنكيين أمرا لا مفر منه في ظل مقاومة وهجمات الموصل وحلب ونقضهم للصلح، استخدم صلاح الدين استراتيجية متسامحة في المعارك، فلم يطارد الفارين، وأطلق الكثير من الأسرى، وذلك أيضا اتباعا لفلسفة تأليف القلوب بهدف تقوية الوحدة المستهدفة.

- تزوج صلاح الدين من عصمة الدين خاتون أرملة نور الدين زنكي، وهو زواج جمع بين الطابع السياسي والمودة والاحترام، ويعد الزواج والمصاهرة أحد أكبر الوسائل التي عرفت في ذلك الزمان في الشرق والغرب التي تتحقق بها الوحدة والتقارب بين المتنازعين.

دانت الموصل وحلب وما يتبعهما في النهاية لصلاح الدين عبر استراتيجيات الحصار والصلح والقتال المحسوب، وعبر اتخاذ كل الوسائل لاكساب دولة مصر والشام الشرعية الكافية والتآلف الكافي للانتقال لمواجهة الصليبيين، واستدعى جمع ما فككته وفاة نور الدين زنكي نحو اثني عشر عاما بين 1174م و1186م.

خاتمة:من ثمرات استراتيجية صلاح الدين

- بالنظر إلى وقوع معركة حطين الحاسمة وتحرير بيت المقدس في العام التالي مباشرة 1187م يستنتج كم كانت استراتيجية صلاح الدين ناجحة وأنها كانت خطوات حقيقية على طريق التحرير وليس كما يختزلها البعض معارك صراع على السلطة لا تتعلق بمعركة بيت المقدس من قريب أو من بعيد.

- لم يتعرض صلاح الدين الأيوبي للطعن في الظهر خلال مواجهاته مع الصليبيين، وبقيت الأمور في مصر خاصة هادئة حتى وفاته والتي كانت قبل سنوات مرجلا من المؤامرات والدسائس، بل لم تحدث ردة عكسية للحكم الفاطمي أثناء نزاع ورثته على الحكم.

- رغم تناقص قوة جيش صلاح الدين الأيوبي بعد التحرير وأثناء الحملة الصليبية الثالثة بقيادة الملك ريتشارد ملك انجلترا، استطاع صلاح الدين الحفاظ على مكتسباته وعلى رأسها بيت المقدس، فلو اعتمد الانتصار منذ البداية على قوة مؤقتة للجيش ووحدة شكلية لانهار كل ذلك بمجرد حدوث شيء من التراجع في الامكانيات، إلا أن احكام البناء الاستراتيجي للدولة الوليدة قد ساعدها على الصمود في الأوقات الصعبة في عهد مؤسسها، بل امتد بها الصمود ضد الاحتلال الخارجي خلال نزاع الجيل الأول من الأيوبيين بعد وفاة المؤسس.

مراجع البحث

1- صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني، د.عبد الرحمن عزام، ترجمة د.قاسم عبده قاسم

2- تاريخ الحروب الصليبية، د.محمد سهيل طقوش.

3- مقرر (بيت المقدس بين الاحتلال والتحرير1244-1099)، شهادة دراسات بيت المقدس، الدكتور ماهر أبو منشار.

4- مقال (محاولات اغتيال السلطان صلاح الدين من قبل جماعة الحشاشين) للدكتور رامي إبراهيم محمود.

5- وثائقي (الحروب الصليبية) انتاج قناة الجزيرة الوثائقية.